القراءات الحداثية للنص القرآني في نظر طه عبد الرحمن
محاولة في نقد الأسس والمرتكزات

د. خديجة بلخير
مخبر الفلسفة وتاريخها- جامعة وهران 2

Abstract:

Taha Abdulrahman is an Arab contemporary thinker; he is one of the Muslim philosophers that renew their reading of the Islamic legacy. He defended strongly the idea that made the Arab Islamic heritage as the fundamental element to protect the Identity. He tried to alienated Western modernity or the civilization of the word as he calls it, He enterprises for the establishment of an Islamic modernity stemming from the original Arabo-islamic heritage, He criticized the adaptation of tools, methods that have been adopted by some Arab thinkers, even created a rupture of knowledge between them and the heritage. In the other side the modernist readers of the Holy Qur'an, such as Muhammad Arkoun, Nasr Hamed Abu Zeid, Hassan Hanafi and others, were criticized and rejected by Taha Abdulrahman, but how did he treated the problem of modernity and originality of the reality and the challenges in the Islamic worlds?

Key words: Islamic heritage, modernity, Qur'an, development, raison, open mind.

يعد طه عبد الرحمن من المفكرين المعاصرين المجددين في قراءتهم للتراث الإسلامي، ويبدو ذلك جليا من خلال تطرقه وبقوة إلى مسائل تمس هويتنا العربية الإسلامية، وهذا التمسك الشديد جعله ينبذ الحداثة الغربية أو حضارة القول كما يسميها، ويدعو إلى تأسيس حداثة إسلامية نابعة من تراثنا العربي الأصيل، دون التقليد الأعمى للغرب وما عرف به من أدوات ومناهج جديدة التي ما إن تبناها بعض المفكرين العرب، حتى أحدثت قطيعة معرفية بينها وبين تراثنا، ومن بين تلك الآليات ما عرف بالقراءات الحداثية للقرآن الكريم، والتي مثلها كل من محمد أركون، ونصر حامد أبو زيد، وحسن حنفي وغيرهم، فهذه القراءات برأي طه عبد الرحمن تقوم على أصول وخطط تقود إلى مآل واحد وهو «**أنسنة النص وأرخنته**»، فكيف عالج طه عبد الرحمن هذه المسألة؟ وما هي الأسس النقدية التي استعملها في تفكيك خطط تلك القراءات وأصولها؟

Scanned by CamScanner

موقف طه عبد الرحمن من الحداثة الغربية:

تعد الحداثة من المواضيع الهامة في الفكر العربي المعاصر، حيث شغلت فكر المفكرين العرب والنقاد الذين بادروا بالكتابة عنها وتعلقت كتاباتهم بكل ما «يحدث على أرض الواقع من أحداث وتدبيرات أو ما يستجد في حقل التجربة الإنسانية من معطيات أو إمكانيات حتى غدت بهذا المعنى فلسفة الحدث في محايثته وراهنيته»،[1] وأصبحت اليوم تستخدم على نطاق واسع.

ونجد المفكر المغربي طه عبد الرحمن دعا إلى تأسيس حداثة عربية إسلامية مقوماتها الدين الإسلامي، وهذا بعد ما نقد مقومات الحضارة الغربية الحديثة، من خلال الكشف عن الأسس التي تقوم عليها، فتطرق في كتابه «**سؤال الأخلاق**» إلى هذا النقد، وتمثل هذا في نقد الممارسات القولية والعقلية والمعرفية التي تفرضها حضارة معيّنة بطريقة ما على باقي الثقافات الأخرى، وجاء التركيز الطاهوي على مسألة الأخلاق لأنها صفة ضرورية تحدد ماهية الإنسان، وباعتبار الحداثة الغربية ذات أشكال متعددة تختلف باختلاف التاريخ والمصير على حسب قول طه عبد الرحمن،[2] فإنه يجب أن يكون للتاريخ الإسلامي تميز عن غيره، وإذا جاز لنا التكلم عن حداثة غير إسلامية فإنه من غير المعقول ألا تكون هناك حداثة إسلامية، وهذه الحداثة تتحقق متى توسلنا «بالنظر الملكوتي الذي يربط القيم بمجالها الأصلي أي الآيات، وهذا الربط ينتج منه وصل العقل بالإيمان، والثقافة بالفطرة، والسياسة بالخير»،[3] بخلاف قيم الحداثة الغربية التي تقلب موازين هذه المفاهيم.

لقد فرق طه عبد الرحمن بين جانبين اثنين هما: «روح الحداثة» و«واقع الحداثة»، حيث أن الخصائص التي تميز روح الحداثة هي مجموعة من المبادئ التي يحققها واقع الحداثة، وهذه المبادئ هي: «مبدأ الرشد» ، و«مبدأ النقد» و«مبدأ الشمول»، ومقتضى المبدأ الأول هو الانتقال من حال القصور إلى حال الرشد، ونصه «لا تقبل وصاية أحد على تفكيرك»،[4] ويستند على ركنيين اثنين هما: الاستقلال والإبداع، أما مبدأ النقد فمقتضاه أن «الأصل في الحداثة هو الانتقال من حال الاعتقاد إلى حال الانتقاد»[5] أي عدم التسليم بالشيء إلا بالدليل، وهو بدوره يقوم على ركنين أساسيين هما: التعقيل والتفصيل، ومبدأ الشمول هو «الإخراج من حال الخصوص إلى حال الشمول»[6] أي يتجاوز كل خصوصية مجالية كانت أو مجتمعية، ويبنى على ركنين اثنين: التوسع والتعميم، فهذه الروح بخصائصها في نظر طه عبد الرحمن هي روح راشدة وناقدة وشاملة.

ولتطبيق هذه المبادئ على المجال التداولي الإسلامي كان لابد من نقد بعض المسلمات الغربية، يقول طه عبد الرحمن: «لابد من اجتناب أفاق التطبيق الغربي لروح الحداثة، هذا التطبيق قد دخلت عليه أفات مختلفة جعلته يبدو وكأنه محكوم بقانون عام قد نسميه بقانون انقلاب المقصود إلى ضده، ومقتضاه أن هذا التطبيق يتوصل في كثير من الحالات إلى نتائج مضادة للنتائج التي يتوخاها أصحابه أو يتوقعونها أو يراهنون عليها»[7] ويعتقد طه أن السبب في الانقلاب هو انقلاب الوسائل إلى غايات، كأن يقال الحداثة هي «التغيير لأجل التغيير»، وعليه لا يجب أن ننقل تطبيق

Scanned by CamScanner

الآخرين لهذه الروح، بل يجب أن نفكر في كيفية الانتقال من حداثة مقلدة إلى حداثة مبدعة، وفي هذا المقام يشير المفكر المغربي أن كل تطبيق لروح الحداثة تصحبه اعتقادات خاصة به، وقد أطلق عليها اسم «مسلمات التطبيق» والتي بدورها قد تكون مسلمات فاسدة، «وهذا بالذات هو وضع التطبيق الغربي لروح الحداثة، إذ انبنى على مسلمات باطلة جلبت جملة من المضار للحياة الإنسانية، فإذن يتعيّن علينا أن نقف على أبرز هذه المسلمات، وأن نبيّن كيف أنها لا تصدق في المجال التداولي الإسلامي، حتى نبني التطبيق الإسلامي لهذه الروح على غير هذه المسلمات»،[8] فالحداثة الغربية في نظر طه عبد الرحمن هي حضارة ضارة أو «حضارة ناقصة»[9] وستكون نتائجها وخيمة على المجتمع الإسلامي، إن لم يقم بفحص وتمحيص لروحها ، فيكون بذلك مبدعا لها لا مقلدا.

إن طه عبد الرحمن إذن يدعو إلى تأسيس حداثة أخلاقية مبينة على مجموعة من المبادئ والقيم التي من شأنها أن تبني حضارة روحية قوية وهو بذلك لا يفصل بين العلم والأخلاق كما هو معروف لدى الغرب، بل يشددّ على العلاقة المتينة بينهما ، خصوصا وأن الدين الإسلامي يركز على مسألة الأخلاق في بناء الإنسان والمجتمع، وباعتبار طه عبد الرحمن ذو ميول صوفية فلا يخفى علينا أن يكون مشروعه الحداثي مشروع أخلاقي، لأن التصوف «خلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء».[10]

فالحداثة الإسلامية هي مشروع أخلاقي يتطلع إليه المسلم بتحصيله الجمع بين العلم والأخلاق، والجمع أيضا بين الغيب والعقل، وما بين الجانب المادي والجانب الروحي.. بمعنى أنها حداثة تزودنا بأسباب العقل الكامل»،[11] وبهذا الاعتبار «فإن العقلانية المجردة لم ترق إلى مستوى العقلانية المؤيدة التي تنظر في دلالة الداخل على الخارج وتقتضي بسلوك القدوة والتحقق بالصدق، إضافة إلى التكامل بين حاجيات الجسم ومتطلبات الروح، وهذه الأمور لم تأخذ بها العقلانية المجردة»،[12] فتميز هذا المفكر المغربي عن غيره هو أنه سلك طريقا يلتمس فيه الإبداع، فجعل المسلم المعاصر يعايش حداثة تناسب عصره وبمقتضى دينه الإسلامي، فيكون بذلك جامعا بين النظر والعمل يقول طه عبد الرحمن: «كل ذلك من شأنه أن يحقق لنا التعقيل المبدع لا المقلد، والتفصيل المبدع لا المقلد، فانظر كيف أن العقل المجرد يطلب معرفة الصفات، وأن العقل المسدد يروم معرفة الأفعال، في حين أن العقل المؤيد يحصل الجمع بين النظر والعمل والتجربة»[13] فالعقلانية أهم المقومات التي بنيت عليها الحداثة الغربية، وهي عند طه درجات متفاوتة أعلاها العقل المؤيد الذي يسد منافذ الآفات الخلقية، وهو الأجدر لتحصيل المعرفة الأكمل والأشمل، وقد ربطها هذا المفكر بالتجربة الذوقية لأنها معرفة مباشرة مع الله، وإن كانت هذه التجربة لا تمد بآليات إجرائية ولا بقوانين ثابتة كما تمد بها الممارسة العقلية، إلا أنها تعطي شيئا آخر أهم وهو «مجموعة من القيم والمقاصد والمعاني المستمدة من الممارسة العملية، ومتى ازدادت هذه القيم الروحية، انفتحت لنا في هذه الخصائص والآليات والقواعد والقوانين الموضوعية التي يمدنا بها النظر»[14] وبها يكون الجمع بين العقل والغيب،

Scanned by CamScanner

وهو الذي يطلق عليه بالعقل الكامل.

ما نخلص إليه من خلال هذا التحليل أن طه عبد الرحمن سعى إلى هدم واقع الحداثة الغربية، لأنها استولت على كثير من العقول وأصبحت التبعية لها أمرا لا مفر منه، فكيف السبيل إلى تخليص العقل الإنساني من هذه التبعية التي تسعى إلى هدم القيم والمبادئ وهوية ثقافة معيّنة؟ فالحل يكمن إذن في التأصيل لأخلاق عالمية، وباعتبار الحضارة الإسلامية مقوماتها الدين والأخلاق، فيجب إذن تأسيس حداثة عربية إسلامية مستقلة تماما عن الحداثة الغربية.

- القراءة الحداثية للنص القرآني:

تعد القراءات الحداثية للنص القرآني من بين أهم مسائل الحداثة التي تطرق إليها المفكرين العرب الجدد، حيث اقتنى هؤلاء الأدوات والآليات من الحداثة الغربية في تعاملهم مع النص الديني، معتبرين ذلك إبداعا وتطبيقا مباشرا لروح الحداثة، في حين ذلك لا يغدو سوى تقليدا و تطبيقا لواقع الحداثة يقول طه عبد الرحمن: «فجاءوا بقراءات للقرآن تقطع صلتها بالتفاسير السابقة، طامعين في أن يفتحوا عهدا تفسيريا جديدا، ولئن سلمنا بأن هذه القراءات تتضمن عناصر من الابتكار، فلا نسلم بأن هذا الابتكار إبداع حقيقي، لأن من شأن الإبداع الحقيقي أن يكون موصولا، وهذا إبداع مفصول، إذ قطع صلته بتراثه، تقليدا للغير، لا اجتهادا من الذات، وكل إبداع هذا وصفه لا يكون إلا بدعة»[15] فما تسببت به تلك الآليات والأدوات هو أنها أحدثت قطيعة بين الماضي والحاضر، خصوصا في قراءتها للنص القرآني وأصبحت تتعامل مع التراث الإسلامي وتاريخه، كما يتعامل الغرب تماما مع تراثه وتاريخه، وما هو معروف عن هذا الأخير هو قطع صلته بالماضي.

لقد بيّن لنا طه عبد الرحمن كيف أن هذه القراءات الحداثية تسعى إلى تحقيق قطيعة معرفية بينها وبين ما يطلق عليه باسم «القراءات التراثية»، والتي هي على نوعين: «أحدهما القراءات التأسيسية وهي التي قام بها المتقدمون، مفسرين كانوا أو فقهاء أو متكلمين أو صوفية، والثاني القراءات التجديدية، وهي التي قام بها المتأخرون، سلفيين إصلاحيين كانوا أو سلفيين أصوليين أو إسلاميين علمنيين».[16]

وهذه القراءات كانت مبنية على تفسيرات عقائدية، في حين هؤلاء اقترحوا مناهج جديدة معتقدين في ذلك أنهم سيحققون نتائج قيّمة تجعل الفكر الإسلامي يتحرر من قيود التخلف، ويواكب التقدم الحضاري، وهدفهم من ذلك هو «تطبيق المناهج التي طبقت على الكتاب المقدس للوصول إلى نتيجة مسبقة وهي أن القرآن عرف ما عرفه الكتاب المقدس من زيادة وتبديل»،[17] ومن بين هؤلاء محمد أركون الذي حاول تطبيق المنهج التاريخي فقال: «أن الدراسات القرآنية تعاني تأخرا كبيرا قياسا بالدراسات التوراتية والإنجيلية التي ينبغي أن نقارنها بها باستمرار، وهذا التأخر يظهر التفاوت التاريخي بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الأوربية والغربية»[18] فما حققه النقد التاريخي على تلك الدراسات التوراتية والإنجيلية من تقدم وتطور جعله يطبق هذا المنهج على

Scanned by CamScanner

القرآن الكريم، فميّز بين القرآن المتلو والقرآن المكتوب فقال: «هناك أشياء تضيع أو تتحور في أثناء الانتقال من المرحلة الشفهية إلى المرحلة الكتابية»[19] والمرحلة الكتابية سماها مدونة رسمية لأنها «ناتجة عن جملة من القرارات المتخذة من قبل سلطات روحية تعترف بها جماعة»،[20] وما بين المرحلتين يتمّ حصول كثير من الحذف والتلاعبات اللغوية، أي ليس كل خطاب شفوي يدون وإنما هناك أشياء تفقد أثناء الطريق، وهكذا جاءت القراءة الأركونية النقدية متجاوزة بذلك قداسة النص الديني، وهذه المحاولة «تتغافل عن الاختلاف الجوهري بين القرآن الكريم وما بين التوراة والإنجيل اللذين أصابهما التحريف».[21]

ويفرق طه عبد الرحمن بين القراءة الحداثية والقراءة العصرية، فيعتبر أن الحداثة ترتبط بأسباب التاريخ الحضاري والثقافي للمجتمع الغربي في حين المعاصرة لا تتخذ مثل هذا الارتباط، أي لا تعيد إنتاج هذه الأسباب التاريخية، وإنما تشتغل بمنجزات العصر أو تخرق أسباب تاريخية جديدة تخص مجال تداولها، ويضرب طه مثالا على ذلك وهي قراءة محمد شحرور في كتابه «الكتاب والقرآن»، حيث يقدم هذا الباحث قراءة معاصرة ورؤية جديدة للإسلام، ووضع منهج جديد في أصول التشريع الإسلامي، وقد وافق أفكاره الكثير من المؤيدين في حين عارضه بعض المفكرين، ومن بينهم المفسرين الحداثيين الذين نفوا صفة الحداثة عن قراءته، واتبعوا في تحقيق مشروعهم النقدي خططا مختلفة، كل خطة تتكون من عناصر ثلاثة يسميها طه عبد الرحمن بأركان الخطة «أولها الهدف النقدي الذي تقصد تحقيقه، وثانيها الآلية التنسيقية التي توصل إلى الهدف، وثالثها العمليات المنهجية التي يتم التنسيق بينها للوصول إلى هذا الهدف»،[22] وهذه الخطط هي خطط القراءات الحداثية المقلدة، لأن طه عبد الرحمن في مؤلفه «روح الحداثة» يفرق بين هذه الخطط وبين خطط القراءات الحداثية المبدعة، وذلك ما بعد ما ينقد الأولى ليفعّل الثانية.

-1خطط القراءات الحداثية المقلدة:

أ-خطة التأنيس:

التأنيس من المصطلحات الشائعة في الحقل الفلسفي الحداثي، ويستعمله البعض بمصطلح الأنسنة، وقد شاع مع المفكر محمد أركون حيث طرحه كرؤية مخلصة للإنسان والعالم، تحرر العقل من كل قيود، وفعلا تمّ تطبيقها على النص القرآني من خلال رفع عنه عائق القدسية، أي نقل الآيات القرآنية من الوضع الإلهي إلى الوضع البشري بواسطة عمليات منهجية كحذف عبارات التعظيم مثل «القرآن العظيم» «القرآن المبين» «قال الله تعالى» وغيرها، واستبدالها بمصطلحات جديدة كالخطاب الإلهي بدل الخطاب النبوي ومصطلح المدونة الكبرى مكان «القرآن الكريم»، ومصطلح «العبارة» مكان «الآية»، ثم التسوية بين رتبة الاستشهاد بين الكلام الإلهي والكلام الإنساني، ليأتي التفريق على مستوى الخطاب الإلهي كالتفريق بين الوحي والتنزيل، أو بين الوحي والمصحف، وكذا بين القرآن الشفوي والقرآن المكتوب كما تبيّن ذلك مع القراءة القرآنية، ثمّ المماثلة بين القرآن والنبيّ عيسى

Scanned by CamScanner

عليه السلام، وفي هذا يقول طه عبد الرحمن: «يسلم القارئ الحداثي بالدعوى التشبيهية، فكما أن كلمة الله تجسدت في عيسى بن مريم، فكذلك كلام الله تجسد في القرآن»[23] وتطبيق مثل هذه العمليات المنهجية التأنيسية تجعل القرآن نصا لغويا كمثل أي نص بشري، يتصرف فيه القارئ كيف ما يشاء، فتزاح قداسته ويصبح مجرد نص يتمّ إنتاجه وفق مقتضيات الثقافة التي تنتمي إليه لغته، وبالتالي يصير منفتحا على تأويلات عدة ثم بعد ذلك يستقل عن مصدره المتعالي ليرتبط بالقارئ الإنساني بدعوى أنه «لا سبيل إلى إدراك المقاصد الحقيقية للمتكلم المتعالي لانقطاع صلته بنا وغيابه عنا، إذ لابد أن يؤدي هذا الغياب إلى ضياع هذه المقاصد، وكل ما يستطيع أن يتقنصه القارئ من النص القرآني إنما هو حصيلة الاستنطاق الذي يمارسه عليه من خلال مرجعيته الثقافية وخليفته المعرفية ووضعيته الاجتماعية والسياسية»[24] وفي هذا يتحرر العقل من كل قوة متعالية تجعله مقيدا بأحكام النص الديني، فيتصرف فيه بحسب ما يمليه عليه رصيده المعرفي والاجتماعي والسياسي، وهذا الأمر كله يجعله بحسب هذه القراءات نصا غير مكتمل.

ب- خطة التعقيل:

التعقيل أو العقلنة هي الخطة الأخرى التي يتبناها أصحاب القراءات الحداثية المقلدة، وتستهدف إلى رفع عائق الغيبية أي أن القرآن المنزل وحي ورد من عالم الغيب، وإزالة هذا العائق هي «التعامل مع الآيات القرآنية بكل وسائل النظر والبحث التي توفرها المنهجيات والنظريات الحديثة»[25] ويتمّ ذلك أيضا بواسطة منهجيات خاصة ذكرها طه عبد الرحمن وهي: نقد علوم القرآن، التوسل بالمناهج المقررة في علوم الأديان وفي علوم الإنسان والمجتمع، استخدام كل النظريات النقدية والفلسفية المستحدثة (البنيويات، التأويلات، الحفريات..) ثم إطلاق سلطة العقل في تفسير الآيات القرآنية، وينتج عن هذا كله المماثلة الدينية بين النص القرآني وباقي النصوص الدينية والتي تؤدي إلى: -تغيير مفهوم الوحي بمفهوم آخر يسوغه العقل- عدم أفضلية القرآن على الكتابين (التوراة والإنجيل) - عدم اتساق النص القرآني من حيث أن سوره وآياته وردت بترتيب يخلو من الاتساق المنطقي - غلبة الاستعارة في النص القرآني على الأدلة والبراهين - تجاوز الآيات المصادمة للعقل حيث لا تعدو كونها شواهد تاريخية في مرحلة معيّنة كتلك الآيات التي تتكلم عن «السحر والحسد والجن والشياطين فهي مفردات في بنية ذهنية ترتبط بمرحلة محددة من تطور الوعي الإنساني».[26]

ج- خطة التأريخ:

ويطلق عليها أيضا خطة الأرخنة، وهي تستهدف رفع عائق الحُكمية أي «اعتقاد أن القرآن جاء بأحكام ثابتة وأزلية، والآلية التنسيقية التي تتوسل بها خطة التأريخ في إزالة هذا العائق هي وصل الآيات بظروف بيئتها وزمنها وبسياقاتها المختلفة»،[27] وهذا الوصل هو الآخر يتم بواسطة منهجيات خاصة: - توظيف المسائل التأريخية المسلّم بها في تفسير القرآن كمسألة أسباب النزول، ومسألة التنجيم وغيرهما، حيث مارس أصحاب هذه الخطة النقد التاريخي لهذه الآيات متجاوزين في ذلك

Scanned by CamScanner

ما وصل إليه المفسرون والفقهاء - تغميض مفهوم الحكم وفي هذا يقول طه عبد الرحمن: «يرى أهل القراءة الحداثية المقلدة أنه لا يمكن أن نطابق بين آية الحكم وبين القاعدة القانونية فإذا كانت القاعدة القانونية عبارة عن أمر صريح بإتباع سلوك مضبوط في ظروف معيّنة تؤدي مخالفته إلى إنزال عقاب مخصوص بمخالِفه فإن الحكم الذي تتضمنه الآية القرآنية ليس كذلك ، فإنه قد يأتي تارة بصيغة الأمر وتارة بصيغة الخبر»[28] وفي هذا يجدون حجة عدم معرفة مضمونه التشريعي- تقليل عدد آيات الأحكام بدليل أنها لا تمثل إلا نسبة محدودة من جملة الآيات القرآنية، وبالتالي إضفاء النسبية عليها أي ليست معاني مستقرة كون أن المفسرين والفقهاء قد فهموا هذه الآيات بمفاهيم مختلفة على حسب مستواهم الثقافي والاجتماعي والاقتصادي - وأخيرا تعميم الصفة التأريخية على العقيدة، وتطبيق هذه العمليات المنهجية التأريخية في رأي طه عبد الرحمن يؤدي إلى اعتبار القرآن الكريم نص تاريخي مثله كمثل أي نص تاريخي آخر، وهذا الأمر يبطل المسلمة التي تقول أن القران فيه بيان كل شيء كما أنه يجعل آيات الأحكام توصيات وعظية لا قوانين تنظيمية، إضافة إلى حصر القرآن في الأخلاقيات الباطنية الخاصة كعلاقتهم بالخالق وعلى الجزاء الأخروي، وأخيرا الدعوة إلى تحديث التدين أي أن نستخلص من النص القرآني تدينا يتلاءم مع فلسفة الحداثة، وكلما تحرر الفرد من أشكال التدين الموروثة، كلما دخل في عالم الحداثة.

هذا ما اتبعه أصحاب الحداثة المقلدة في قراءتهم للنص القرآني، وقد قام طه عبد الرحمن بعد ذكر هذه الخطط بنقدهم نقدا لاذعا حيث اعتبر أنهم لم ينقلوا سوى واقع الحداثة الغربية، مقلدين لا مبدعين وتجلى هذا التقليد «في كون خططهم الثلاث المذكورة مستمدة من واقع الصراع الذي خاضه الأنواريون في أوربا مع رجال الكنيسة، والذي أفضى بهم إلى تقرير مبادئ ثلاثة أنزلت منزلة قوام الواقع الحداثي الغربي أولها مقتضاه أنه يجب الاشتغال بالإنسان وترك الاشتغال بالإله، وثانيها التوسل بالعقل وترك التوسل بالوحي، وثالثها يجب التعلق بالدنيا وترك التعلق بالآخرة»،[29] وهذه المبادئ تنطبق تماما على تلك الخطط الثلاث، بحيث لا يخفى على القارئ أنها تحمل في طياتها عيوب منهجية كفقد القدرة على النقد، وضعف استعمال الآليات المنقولة، وتعميم الشك على كل مستويات النص القرآني وغيرهم.

-2 القراءة الحداثية المبدعة:

لقد حاول طه عبد الرحمن أن يحقق الإبداع في قراءة النص القرآني بعدما رأى الإسقاط الآلي لتلك التطبيقات الغربية، فاعتبر أن هذا الأمر لا يتحقق إلا بالأخذ بالحقيقتين التاريخيتين، إحداهما «أنه لا دخول للمسلمين إلى الحداثة إلا بحصول قراءة جديدة للقرآن الكريم ذلك أن القرآن كما هو معلوم هو سر وجود الأمة المسلمة وسِرّ صُنعها للتاريخ، فإذا كان هذا الوجود والتاريخ ابتدأ مع البيان النبوي أو قل القراءة النبوية للقرآن، فدشّنت بذلك الفعل الحداثي الإسلامي الأول»،[30] ومواصلة هذا التاريخ لمساره يقتضي بطبيعة الحال تدشينا لفعل حداثي إسلامي ثاني، وهذا الأخير لا يتمّ إلا بقراءة

Scanned by CamScanner

متجددة للقرآن تكون على صلة بالقراءة النبوية وليس العكس كما فعل أصحاب القراءات الحداثية المقلدة بإحداث قطيعة معرفية مع التراث، وثانيها أن قيام واقع الحداثة في المجتمع الغربي كان على أساس مواجهة المؤسسات الكنيسة التي مارست وصايتها على الدين والثقافة والسياسة وغيرها، وهذا كله دعا إلى تحرير الإنسان الغربي من سلطة وتبعية الدين، ممّا يعني أن الحداثة الغربية قامت على أصل التصارع مع الدين، وهذا يحيلنا إلى أن «مقتضى الحداثة الإسلامية يضاد مقتضى الحداثة الغربية»[31] لأن الفعل الحداثي الإسلامي لا يقوم إلا على أساس التفاعل مع الدين لا العكس، وهو من جنس الإبداع الموصول سواء في طوره النبوي الأول أو الإبداعي الثاني.

2-1خطط القراءة الحداثية ذات الإبداع الموصول:

لقد حاول طه عبد الرحمن تجديد القراءة في التعامل مع النص القرآني، تتجاوز بذلك القراءات الحداثية المقلدة والتي تحاول أنسنة وعقلنة وأرخنة القرآن «وجعله ظاهرة تاريخية خاضعة لتحقيب زمنيّ محدد»،[32] وعليه فهو يقترح تجديدا لتلك المدلولات تأخذ طابعا إبداعي وهي:

أ- خطة التأنيس المبدعة:

هذه الخطة تتجاوز خطة التأنيس المقلدة في أنها لا تمحو القدسية، وإنما تدعو إلى تكريم الإنسان، وبالتالي يكون نقل الآيات القرآنية من وضعها الإلهي إلى وضعها البشري تكريما لهذا الإنسان لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[33] فالتكريم الإلهي هو تكريم لمركزية الإنسان في الكون وليس تقديسا للذات، وفي هذا لن يكون هناك أي إضعاف للتفاعل الديني لأن الوحي الإلهي نزل بلسان عربيّ مبين مخاطبا لغة إنسانية، كما أن هذه الآلية لن تخلّ بالفعل الحداثي لأن الإنسان هو خليفة الله في الأرض، فهناك علاقة تواصل مع الخالق وهذا الأمر يوصل إلى تحقيق الإبداع الموصول، ويظهر ذلك في أمور كثيرة كإبطال المماثلة اللغوية بين النصوص القرآنية والنصوص البشرية التي أقامها التأنيس المقلد، لأن النصوص القرآنية ليست أشكالا تعبيرية وإنما مضامين تبليغية «فلا نظير للنص القرآني في حداثته اللغوية».[34]

ب- خطة التعقيل المبدعة:

تستهدف هذه الخطة إلى توسيع العقل، ويعطي طه عبد الرحمن تعريفا لها بقوله: «هي عبارة عن التعامل مع الآيات القرآنية بكل وسائل النظر والبحث التي توفرها المنهجيات والنظريات الحديثة، توسيعا لنطاق العقل»[35] وليس تضيقا له، وهذا يلزم أن التعامل العلمي مع النصوص القرآنية لا يضعف التفاعل الديني، كما لا يخل أيضا بالفعل الحداثي لأن العقل يزيد في توسيع أفاقه فيمزج بين المادي والمعنوي فالتعقيل المبدع يعمل على جلب ما ينفع الفكر وليس العكس.

وتطبيق هذه العمليات المنهجية في التعقيل المبدع في رأي هذا المفكر «تتولى تعقب مظاهر توسيع العقل في الآيات القرآنية ومواطنه وأقداره مستخرجة منها مختلف الأدلة التي تثبت مبدأ التدبر»،[36] وبهذا المعنى يكون العقل القرآني هو الذي يربط الأحداث بالعبر، ويربط بين المحسوس

Scanned by CamScanner

والمعقول، وبين المعقول والروح، فيرتقي النص القرآني على بقية النصوص المنزلة الأخرى حتى الوثنية منها، من حيث أنه يمثل وسيلة لتفعيل عقل أعلى، وبالتالي تبطل تلك المماثلة الدينية التي أقرتها خطة التعقيل المقلد.

ج-خطة التأريخ المبدع:

تهدف هذه الخطة في المشروع الطاهوي إلى ترسيخ الأخلاق بالدرجة الأولى، عكس ما رمت إليه خطة التأريخ المقلدة من محو الحُكمية ويعرفها طه عبد الرحمن بقوله: «هي عبارة عن وصل الآيات القرآنية بظروف بيئتها وزمنها وسياقاتها المختلفة، ترسيخا للأخلاق»[37] فالأخلاق هي ميزة الحضارة أو الأمة، ولأهميتها ركز عليها القرآن في أكثر من آية، وهذا الأمر تفطن له الحداثيين المقلدين لكنهم فصلوها عن القواعد القانونية، وظنوا أنها تقتصر على فترة أو ظروف معيّنة، بحيث كلما تجددت الظروف والسياقات تجدد تحقق هذه القيم التي تحملها تلك الآيات، ويكون مضمون آية الحكم ما يرمي إليه التشريع من تخليق للسلوك، ويصبح الحكم القانوني تابعا للحكم الأخلاقي ومن خلال كل هذا يحقق الإبداع الموصول لأن ترسيخ الأخلاق هو الغاية من البعثة المحمدية.

وهكذا تتولى العمليات المنهجية في خطة التأريخ المبدع على حسب هذا المفكر في الكشف عن مواضع التخليق ونماذجه في الآيات القرآنية، واستخراج منها مختلف الأدلة كمبدأ الاعتبار الذي يحث العقل على التدبر والتعقل والتأمل مع النص، ومن ثمّ إبطال المماثلة التاريخية بين النص القرآني والنصوص التاريخية، فالآيات القرآنية ليست مجرد وقائع تاريخية ترتبط بحقبة زمنية معيّنة، بل إنه بتعبير طه عبد الرحمن «النص الخاتم» الذي يمتد إلى زمن ما بعد نزوله، إنه النص المليء بالقيم الروحية والأخلاقية، والتي من شأنها أن تصنع التاريخ، إذ لا مثيل له في حداثته التاريخية.

لقد حاول طه عبد الرحمن أن يسلك طريق الإبداع الموصول في القراءة الحداثية للقرآن، و الذي ميّز التطبيق الإسلامي لروح الحداثة لا لواقعها، لأن هذه الروح هي التي ستخرج الواقع العربي من الحداثة المقلدة، التي تقوم على أخذ الواقع الغربي وإسقاطه على واقعنا دون فحص وتمحيص ومراعاة للفارق التداولي، وهذا النهج جاء من خلال تقويمه للتراث بصفة عامة، ودعوته لتأسيس حداثة أخلاقية مقوماتها الدين الإسلامي، فكان نقده للقراءات الحداثية المقلدة من أجل بنائها من جديد، و إعطاء قراءة مختلفة نوعا ما للقرآن أو لتفسيره يكون فيها الإبداع الموصول بتراثنا وثقافتنا.

وما وصل إليه هذا المفكر من خلال قراءته العميقة، أن الاستراتيجيات التي اتبعها الحداثيون المقلدون في تناولهم للنص الديني، لم تحقق لهم أي تقدم وتطور حضاري، بل لم ينجحوا في تأسيس حداثة عربية إسلامية لأنهم تبنوا مناهج وآليات منقولة من واقع حداثي غربي ولا فلاح لحضارة تقطع صلتها بماضيها وتراثها وثقافتها، وإن كانت القراءة الإبداعية تتفق مع القراءة المقلدة في بعض جوانبها التنسيقية فأنها تختلف عنها من حيث أهدافها ومقاصدها كالتفاعل مع النص الديني، وتكريم الإنسان، وتوسيع أفاق العقل وترسيخ الأخلاق، وبهم يتجدد الفعل الحداثي.

Scanned by CamScanner

قائمة المصادر والمراجع:
-القرآن الكريم .
أولا: المصادر:
- طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري: المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2005.
- طه عبد الرحمن، الحوار أفقا للفكر: الشبكة العربية للأبحاث، بيروت-لبنان،ط1، 2013.
- طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل: المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط4، 2004.
- طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل: الشبكة العربية للأبحاث، بيروت-لبنان ، ط1، 2011.
- طه عبد الرحمن، روح الحداثة: المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط1، 2006.
- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق «مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية»: المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2000.
ثانيا: المراجع
- القشيري، الرسالة القشيرية تحقيق: عبد الحليم محمود، دار الشعب، د.ط، 1989
- محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل: ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ط1، 1999
-محمد أركون، نافذة على الإسلام: ترجمة: صياح الجهيم، دار عطية، بيروت، ط1، 1995.
- محمد شوقي الزين، إزاحات فكرية : منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.
- نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني: سينا للنشر، القاهرة، ط2، 1994.
- يوسف الكلام، القراءات الحداثية للقرآن الكريم ومناهج نقد الكتاب المقدس: مركز البحوث والدراسات، الرياض، ط1.
- يوسف بن عدي، أطروحات الفكر العربي المعاصر في مناهج تحليل التراث : دار التوحيدي، المغرب، ط1، 2015.
- يوسف بن عدي ، مشروع الإبداع العربي الفلسفي «قراءة في أعمال طه عبد الرحمن «: الشبكة العربية للأبحاث، بيروت- لبنان، ط1، 2012.
ثالثا: الدوريات
- جلول مقورة، فلسفة التواصل في الفكر العربي المعاصر «طه عبد الرحمن وناصيف نصار بين القومية والكونية»: مجلة المستقبل العربي مركز الدراسات الوحدة العربية، العدد 446، 2016.

1 -محمد شوقي الزين، إزاحات فكرية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص35.
2 _طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2006، ص17.
3 -طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2005، ص48.
4 -طه عبد الرحمن، الحوار أفقا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث، بيروت-لبنان، ط1، 2013، ص83.

Scanned by CamScanner

5 -طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المصدر نفسه، 26.

6 - المصدر نفسه، ص 28.

7 -المصدر نفسه، ص32.

8 -المصدر السابق، ص36.

9 -طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق «مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية»، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2000،ص59.

10 - القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود، دار الشعب، د.ط، 1989،ص466.

11 -طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، المصدر نفسه، ص98-99.

12 -يوسف عدي، أطروحات الفكر العربي المعاصر في مناهج تحليل التراث، دار التوحيدي، المغرب، ط1، 2015، ص58.

13 -طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4، 2004، ص129.

14 -طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث، بيروت-لبنان، ط1، 2011، ص138.

15 - طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المصدر السابق، ص176.

16 - المصدر نفسه، ص176.

17 -يوسف الكلام، القراءات الحداثية للقرآن الكريم ومناهج نقد الكتاب المقدس، مركز البحوث والدراسات، الرياض، ط1، ص09.

18 - محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، لبنان - بيروت، ط1، 1999، ص22-23.

19 - المرجع نفسه، ص53.

20 - محمد أركون، نافذة على الإسلام، ترجمة: صياح الجهيم، دار عطية، بيروت، ط1، 1995، ص57-58.

21 - يوسف بن عدي، مشروع الإبداع العربي الفلسفي «قراءة في أعمال طه عبد الرحمن «، الشبكة العربية للأبحاث، بيروت- لبنان، ط1، 2012، ص129-130.

22 - طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المصدر السابق، ص 178.

23 - المصدر نفسه، ص179.

24 - المصدر نفسه، ص181.

25 - المصدر السابق، ص181.

26 - نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، سينا للنشر، القاهرة، ط2، 1994، ص212.

27 - طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المصدر السابق، ص184.

28 - المصدر نفسه، ص185.

29 - المصدر السابق، ص189.

30 -المصدر نفسه، ص193.

31 - المصدر السابق، ص194.

Scanned by CamScanner

32 - جلول مقورة، فلسفة التواصل في الفكر العربي المعاصر «طه عبد الرحمن وناصيف نصار بين القومية والكونية «، مجلة المستقبل العربي، مركز الدراسات الوحدة العربية، العدد 446، 2016، ص 45.

33 - سورة الإسراء، الآية: 70.

34 - طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المصدر السابق، ص199.

35 - المصدر السابق، ص199.

36 - المصدر نفسه، ص201.

37 - المصدر نفسه، ص203.

Scanned by CamScanner